من أعلام المقاومة الثقافية في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية
أبو القاسم الحفناوي أنموذجا

د. خير الدين شترة
جامعة المسيلة الجزائر

الملخـــص

إن حياة الشيخ الحفناوي بن الشيخ تُمثل أحد النماذج النادرة للمثقف الجزائري الريفي في العهد الاستعماري من عدة وجوه، ومنها تواضع أهل الريف واستغلال السلطات الاستعمارية لهم، بما يخدم مصالحها ومشاريعها، ورغم كل ما تمتلكه هذا الشخصية من ملامح النبوغ والتميّز، ورغم كل العطاء الذي قدمته على المستوى التعليمي أو الصحفي أو الأدبي أو الديني أو الاجتماعي.. إلا أنه قد طالها تعسف كبير من لدن المؤرخين والباحثين المهتمين بهذه الفترة. فقد عاش مترجمنا في بيئة ذات اهتمام علمي مميز، فاحتك احتكاكًا مباشراً بالحياة الثقافية في منطقته وفي غيرها، كان الشيخ أبو القاسم الحفناوي من أبرز الأسماء الجزائرية التي ظهرت في الساحة الثقافية في الجزائر مطلع القرن العشرين، حيث كانت إسهاماته فيها كثيرة ومتنوعة: «الترجمة، التأليف في مواضيع شتى، الإفتاء، التدريس، الصحافة، النوادي...».

المقدمـــــة:

إن جزائر نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تبنّت في معارضتها للحكم الفرنسي سياسة جديدة غير تلك التي مارستها من قبل، سياسةً لا تقوم على الثورة والعمل المسلح بل تنشدُ تحقيق الوعي السياسي والثقافي للمجتمع، وسيلتها في ذلك العمل الصحفي والوطني، وتأسيس النوادي والجمعيات الثقافية، فنادت بالتحرير عن طريق التعليم، وحاولت الحفاظ على الهوية الوطنية مخافةَ طمسها بنشر تعاليم الدين الحنيف وإعادة كتابة التاريخ الصحيح وبعث الحياة في لغة الأصل والأجداد...فقد شهدت هذه الفترة نشاطات اجتماعية وثقافية حيَّة قادها جيل من العلماء الأعلام والمصلحين العظام. ومن المظاهر الهامة لهذا العهد؛ طبع وإحياء الأعمال التاريخية الجزائرية، فالعصر الذهبي هذا قد فتح أمام الجيل الجديد الذي كان قد نسي في أغلب الأحيان مساهمات أجداده في الحضارة الإنسانية وفي هذا الإحياء للتاريخ الوطني تحقيق للربط بين الأجيال، وبين سنوات 1900-1910 نُشرت أعمال: «نحلة اللبيب» لابن عمار و«البستان» لابن مريم، و«نزهة الأنظار» للورتيلاني، و«عنوان الدراية» للغبريني، و«تعريف الخلف برجال السلف» للشيخ أبو القاسم الحفناوي موضوع دراستنا.

وكل هذه الأعمال كانت قد كُتبت في أو عن العهد الجزائري الذي يُوافق العصور الوسطى وعصور النهضة والتقدم في أوروبا، ففي ذلك الوقت كانت الجزائر تتمتع بحياة ثقافية وعلمية رائدة، واقتصاد زاهر وقيادة سياسية قوية تحت حكم أسر ملكية مختلفة، ولا شك أن ناشري تلك الأعمال التاريخية كانوا يعنون ذلك العهد حين فتحوا أمام مواطنيهم الجهلة والمضطهدين الأبواب على بعض أنوار ماضيهم. ويمكن القول أن الكتابة التاريخية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي كانت تُشكل وسيلة من وسائل الكفاح الوطني ضد العدو الفرنسي المستعمر وضد من شوّه ماضي الجزائر، وذلك لأنها كانت ترمي إلى شيء هام وهو الوجود القومي والنزعة الوطنية،

وقد أكمل الرسالة من بعد هؤلاء السابقين (الحفناوي وأضرابه) عدد آخر من الجزائريين فكان من بينهم الشيخ مبارك الميلي والمدني والجيلالي، إن هؤلاء الرواد حاولوا حفظ تاريخ الأمة وصيانة هويتها الإسلامية والعربية رغم ضعف الإمكانيات ورغم طغيان الدعاية الاستعمارية المضادة لهذا الاتجاه.

ورغم كل ما تمتلكه هذا الشخصية من ملامح النبوغ والتميّز، ورغم كل العطاء الذي قدمته على المستوى التعليمي أو الصحفي أو الأدبي أو الديني أو الاجتماعي...، إلا أنه قد طالها تعسف كبير من لدن المؤرخين والباحثين المهتمين بهذه الفترة. لقد عاش مترجمنا في بيئة ذات اهتمام علمي مميز، فاحتك احتكاكًا مباشراً بالحياة الثقافية في منطقته وفي غيرها، حيث كان الاهتمام بالتراث ظاهرة متميزة في تلك الفترة بالجزائر غير مفصولة عن الظاهرة ذاتها في المشرق العربي خاصة في أوائل النهضة. إن حياة الشيخ الحفناوي بن الشيخ تُمثل أحد النماذج النادرة للمثقف الجزائري الريفي في العهد الاستعماري من عدة وجوه، ومنها تواضع أهل الريف واستغلال السلطات الاستعمارية لهم، بما يخدم مصالحها ومشاريعها، ومن مميزات المثقف الريفي أيضًا هو تنوع مصادر الثقافة لديه؛ ذلك أن الحفناوي قد نهل من مختلف الزوايا والمساجد والكتب القديمة والحديثة قبل الالتحاق بالعاصمة، فتعلّم منها الفرنسية وتوظّف لدى الإدارة الرسمية وكثرت رحلاته باتجاه أوروبا والدول المغاربية (تونس- والمغرب)، وزاد رصيده الفكري باندماجه في المحيط الثقافي الفرنسي سواءً في الجزائر أو فرنسا، وبهذا التنوع صُقلت شخصية علمية وأدبية وفكرية وصحفية سيكون لها الأثر البالغ في تشكيل الملامح الأولى للنهضة الجزائرية الحديثة. من ملامح الطمس التاريخي التي طالت هذه الشخصية المتعمد منها وغير المتعمد: هو عدم التدقيق في نسب هذه الشخصية وحتى في تحديد تاريخ مولده وبعض المراحل المهمة من حياته وعلاقاته العلمية والاجتماعية وحتى السياسية فبغض النظر عن ملاحظاتنا حول ما كتبه المعاصرون له أو اللاحقين لهم من المهتمين بالنهضة

الأدبية الجزائرية أمثال ما كتبه: محمود كحول[1]، وسعد الدين بن شنب[2] وأحمد توفيق المدني[3] ومارت وأدمون قوفيون[4]...، فهذه الدراسات جاءت بعموميات مختصرة عن نشاطاته أو إسهاماته الأدبية؛ قلت بغض النظر عن هذه الكتابات يمكن أن نسجل أن الأستاذة خديجة بقطاش من أوائل الباحثين الجزائريين من أفرد له مقالاً خاصاً وبكتابه «تعريف الخلف»[5] فأخذت بذلك قصب السبق في نفض غبار النسيان والتناسي عن هذه الشخصية التاريخية المهمة، لكن وقعت من غير عمد منها في أخطاء قاتلة حول نسبه، وبعض المعلومات الجانبية المتعلقة بنشأته وبيئته سننبه لها في حينها.

وحتى بعد أن صدر التحقيق المتميز والمشترك بين مؤسسة الرسالة (بيروت) والمكتبة العتيقة (تونس) حيث استطاع المحققان أن يُخرجا للعالم المعاصر هذا السفر العظيم رغم كل ما فيه من نقائص وسهو، ولعل أول خطأ وقعا فيه هو تدوينهما في صفحة الواجهة أنه كان مرجعاً للإفتاء المالكي بالجزائر سنة 1355هـ/ 1936م[6]، رغم أنه في الحقيقة ارتقى إلى هذا المنصب على مستوى الجزائر العاصمة منذ عام 1344هـ/ 1925م، ليشغل منصب مفتي الجزائر لأتباع المذهب المالكي بعد اغتيال

---

[1]– التقويم الجزائري، السنة الثانية، الجزائر: مطبعة فونتانة، 1912 .

[2]– "النهضة العربية بالجزائر في نصف الأول من القرن 14هـ"، مجلة كلية الآداب، ع1، الجزائر: 1964، ص ص (34 . 43). ولنفس المؤلف أيضاً بحث عن المؤرخين العرب (الجزائريين)، في المجلة الأفريقية (RA19) عام 1956، وله أيضا: مؤلف قيّم بعنوان: الأدب العربي في الموسوعة الاستعمارية والتجربة في الجزائر والصحراء، طبعه بباريس عام 1946م.

[3]– حياة كفاح (مذكرات)، ج2، الجزائر: عالم المعرفة، 2010م.

[4]– أعيان المغاربة، الجزائر: 1920، ص .ص (156 . 157).

[5]– "أبو القاسم الحفناوي وكتابه تعريف الخلف برجال السلف"، الأصالة، س6، ع51، الجزائر: نوفمبر 1977، ص ص (48 . 57).

[6]– الطبعة الأولى كانت سنة 1983م، والطبعة الثانية عام 1985م ذلك أن الكتاب الأصلي عندما أعيد طبعه ثانيةً في تونس (بمكتبة الشيخ خبر الدين) في حدود سنة 1920 صُور صوراً أخرى.

الشيخ بن دالي في الحادثة المشهورة عام 1936م، ورغم التصحيحات والتنبيهات التي أشار إليها الأستاذ عمر بن قينة في مقاله "بجريدة الشعب"[1]، ثم أعاد المقال نفسه في كتابه شخصيات جزائرية[2] وملاحظاته كانت حول الأخطاء التي وقعت فيها الأستاذة خديجة بقطاش حول مسألة النسب والمولد ومسقط الرأس، والتي يبدو أن مبررها في ذلك كما يرى الأستاذ بن قينة: «أن العمل كان متقطعًا ويقوم على مذكرات لم تحظ بترتيب كاف»[3] ورغم ذلك إلا أن من الباحثين المتأخرين من وقع في نفس الأخطاء السابقة. فمنهم الأستاذ بوجلال العربي في مقاله "بجريدة الخبر" والذي كان على عددين[4] ومنهم بعض الأساتذة الذين قدموا محاضرات في الندوة التي أُقيمت خصيصًا له بمسقط رأسه في جويلية 2006م، وحتى لما جاءت محاولة جزائرية أخرى لتحقيق الكتاب من طرف الأستاذ محمد رؤوف القاسمي الحسني أين تمَّ تخريج الكتاب في طبعة صغيرة الحجم .. حيث وضع له صاحب التحقيق مقدمة تعريفية صغيرة تحمل نفس الأخطاء السابقة، ناهيك عن سلبيات أخرى تتعلق بالتحقيق نفسهُ من سهو عن بعض الفقرات بل حتى أسطر وأبيات شعرية من عدة قصائد مدرجة في ثنايا المجلدين خصوصًا منهما المجلد الثاني.

---

[1]- "وقفة قصيرة عند الحفناوي وكتابه تعريف الخلف برجال السلف"، جريدة الشعب، ع 4461، الجزائر: 11 مارس 1978م.

[2]- شخصيات جزائرية، الجزائر: دار البعث، 1983م ثم وضع له دراسة خاصة في كتابه: صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية 1993م، ص. ص (125 . 133).

[3]- عمر بن قينة، شخصيات جزائرية، ص 57.

[4]- "أبو القاسم الحفناوي، صاحب تعريف الخلف برجال السلف" الخبر (3- 8- 1997)، (1- 9 -1997) وقد نبّه إلى أخطائه في عدد لاحق الأستاذ محمد فضيلي (الذي آثر أن يُلقب نفسه بالشبوطي) وهو من مثقفي المنطقة.

1- مولده وإشكالية نسبه:

ولد مترجمنا سنة 1269هـ / 1852م[1] غير أن صديقه الشيخ محمود كحول الذي ترجم له في التقويم الثاني ذكر أنه ولد عام 1267هـ/ 1850م[2] وكان مسقط رأسه بقرية الديس؛ وهي قرية صغيرة آنذاك تقع بالقرب من مدينة بوسعادة على مسافة لا تزيد عن 10كم، وإن كانت حالياً قد قَلَّتْ مع زحف الاسمنت على الأراضي السهبية التي بين المدينتين وهي الآن عاصمة بلدية أولاد سيدي إبراهيم، وتضم إليها عدداً من القرى والمداشر لعل أقربها إليها قريتي عين الديس والبوير. لقد قدّمتْ له مدينته الصغيرة هذه تقاليد الأسرة والبيئة، ووهبته الطبيعة القاسية حب العلم وحب التجول والبحث عن مصادر الثقافة، فدرس على أبيه عدة علوم، وكانت بالقرب من الديس زاوية الهامل وشيخها محمد بن بلقاسم ومساعده الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي، وكذلك زاوية طولقة التي اشتهرت بمؤسسها الشيخ علي بن عمر، وبعيداً عن ذلك زاويتان أخريتان شهيرتان هما: زاوية ابن أبي داود بتاسلنت قرب آقبو، وزاوية نفطة العزوزية هذه الأخيرة التي نشك أن الشيخ الحفناوي قد التحق بها لعدم وجود ما يُثبت ذلك، رغم أن بعض المهتمين ذكروا في ترجمته أنه قد درس بها وتتلمذ على شيوخها[3]، إن هذه الزوايا كانت بعيدة في الظاهر عن السياسة ولا تشارك في الثورات ضد الفرنسيين إلا بصفة غير مباشرة، خلال النصف الثاني من القرن 19م، ولكنها كانت نشيطة في نشر العلم وحفظ القرآن الكريم،

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص427 راجع أيضا نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، 1980م، ص 121، - عاشور شرقي، معلمة الجزائر، الجزائر: دار القصبة للنشر، 2009 م، ص 608،- معجم المؤلفين، ج11، ص 121، معجم المطبوعات، ص 781 .

[2]- محمود كحول، المصدر السابق، (1912)، ص 169.

[3]- راجع سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص 427 . وأيضاً:- مارت وأدمون قوفيون، أعيان المغاربة، الجزائر، 1920م ص ص 156 .

وصيانة التراث الإسلامي من الضياع، ولم يكن للتلاميذ حدود سياسية فهم يتنقلون من زاوية إلى أخرى ومن شيخ إلى آخر حسب رغباتهم وإمكاناتهم، ولكنهم كانوا في مختلف الأحوال يجدون المساعدات المادية والمعنوية من المحسنين ومن أهل الزوايا وهكذا كان حال الشيخ الحفناوي[1] فالمنطقة التي ترعرع فيها الشيخ الحفناوي كانت عندئذ ما تزال تحت تأثير ثورة الزعاطشة التي أدّت إلى احتلال بوسعادة ونواحيها وانتصاب المكتب العربي بها (الإدارة الفرنسية الجديدة)، ونفي أبرز الشيوخ الذين أيّدوا الثورة مثل محمد بن شبيرة وأخيه، إذن عاصر بلقاسم الحفناوي خلال النصف الثاني من القرن 19م فترة المملكة العربية، وحُكم المكاتب العربية العسكرية، ثم حكم النظام الجمهوري، وما سنّهُ من قوانين ضد الجزائريين وإرهاقهم مثل: قانون الأهالي، كما عاش أحداث ثورة المقراني 1871م وبوشوشة والأوراس أثناء شبابه، ولعله كان يتردد على زوايا طولقة، وآقبو، والهامل عندما كان محي الدين بن الأمير عبد القادر يبعث برسله ورسائله إلى أعيان الجزائر يدعوهم إلى الثورة، إضافة إلى معايشته لأحداث تنفيذ حكم الإعدام في بوشوشة ولجوء بومزراق وقادة الرحمانية إلى الصحراء.

كان الحفناوي قد تردد أيضاً كأبيه على الزوايا الرحمانية للقراءة والتعلم، ويظهر من جملة كتاباته ومقالاته ورسائله خصوصاً منها كتابه «تعريف الخلف» أنه متأثر بثقافة الطرق الصوفية، ولكنه لم يؤسس طريقة كما فعل بعض الشيوخ ولا ندري ما الذي جاء به إلى العاصمة وكيف كان استقراره بها إلا من مصدر واحد وهو ما كتبه تلميذه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، لقد كان الحفناوي في الثلاثينات من عمره عندما جاء إلى العاصمة سنة 1883م (فترة الحاكم العام لويس تيرمان)[2]، وسرعان ما وجد طريقه إلى الجريدة الرسمية التي كان يشرف عليها المترجم "آرنو" أحد أعيان الترجمة

---

[1]– بن قينة عمر، صوت الجزائر، ص 126.

[2]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص 428 غير أن زميله الشيخ محمود كحول يذكر أن سنة نزول بالعاصمة كانت عام 1884م. 1301هـ أنظر : التقويم، (1912)، ص 169 .

والمخابرات وكانت صلته بالإدارة الأهلية قوية، وهي الإدارة التي كان يشرف عليها الضابط المختص في شؤون الطرق الصوفية " لويس رين" ويهمنا أن نعرف أن هذه الإدارة هي التي كانت تشرف أيضًا على جريدة "المبشر" وهكذا تتضح إلى حد كبير الصلة بين هذه الإدارة وآرنو وأبي القاسم الحفناوي[1].

لقد عبَّر الحفناوي بنفسه عن عرفانه بالجميل "لآرنو" الذي تعلَّم منه كما قال في مقدمة كتابه: «الفرنسية والآداب والترفع على المتكبرين والتواضع أمام غيرهم»، فقد قال: إن "آرنو" هو شيخه في العلوم العصرية أيضًا، وأنه ربَّاه عقليًا وعلميًا فارتقى به إلى «درجة أفتخر بها على أبناء وطني»، وعلَّمه كما قال أيضًا: « التواضع القلبي والترفع القالبي على أهل الكبرياء»، ووصفه بالحكيم، ولازمه في الجريدة حوالي اثني عشرة سنة، وكان "آرنو" محرراً لها والحفناوي هو كاتبه. وظل الحفناوي في جريدة "المبشر" إلى أن توقفت عن الصدور سنة 1927م كان يقوم فيها بدور المحرر والمصحِّح ؛ ولكن الموضوعات كانت من اختيار الفرنسيين، فكان يُترجم من الوثائق الفرنسية إلى العربية، وكان يُشيدُ بالآثار العلمية الفرنسية ترغيبًا للجزائريين وإرضاءً للفرنسيين، فمدح باستور، وأبرز دوره في اكتشاف دواء لداء الكلب ولكنه ربط بين ذلك ودور العرب في الطب[2]، أما عن دوافع هذه الرحلة الفريدة في تاريخ بلدته، فيذكر تلميذه الشيخ عبد الرحمان الجيلالي أنه سأله يومًا عن الدافع الموجب أو الباعث السعيد الذي كان سببًا في انتقاله عن إقامته في مسقط رأسه (الديس) إلى سكن العاصمة؟ «فقال لي: يا ولدي؛ إنني لما كنتُ بقريتنا كنتُ شغوفاً بمطالعة الكتب، وأختار منها ما تميل إليه نفسي ويشتهيه خاطري، وكان فيما طالعته هناك وختمته مراراً كتابان جليلان وهما: «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة، والثاني هو«مقدمة ابن خلدون» قال: فأُعجبتُ بهما معاً غاية الإعجاب وملكاً عليَّ حواسي، فاشتدت رغبتي

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص 428 .

[2]- نفسه، ج3، ص 90 .

في تحصيل العلم وتاقت نفسي إلى البحث عمّن يُحسن من العلماء ما احتوى عليه هذان الكتابان من معارف فقلت: "إن ذلك لا يوجد إلا في العواصم"، فهذا ما دفعني إلى شدّ الرحال إلى مدينة الجزائر باحثاً عن عالم بصير بما هنالك»[1] ثم يتحدث الشيخ الجيلالي عن بداية رحلته إلى العاصمة قائلاً: «ونزل أستاذنا الحفناوي العاصمة سنة 1300هـ/ 1883م يحمل معه كتبًا في فنون من علم المعقول، وكان من بينها كتاب للجغميني الفلكي في علم الهيئة (مخطوط) وصحب معه آلة الإسطرلاب، وأخذ يبحث عن علماء عاصمة الجزائر، فدُلَّ على دكان الوجيه المرحوم سيد علي ابن الحداد وكان متجراً تلتقي فيه النخبة العلمية بالعاصمة في ذلك التاريخ، فذهب إليه وبيده آلة الإسطرلاب الذي أحضره معه يوم أن جاء من الديس، فاجتمع ببعض من حضر في ذلك الوقت من العلماء وتباحث معه في شأن الإسطرلاب فلم يجد عنده علماً فسقط في يد الشيخ»[2].

وفي العاصمة تعرف الحفناوي إلى فئة طيبة من العلماء كان منهم الشيخ علي بن الحفاف المفتي المالكي، والشيخ محمد القزادري إمام الجامع الكبير، والأستاذ حسن بريهمات مدير المدرسة، فاقترح عليه هذا الأخير ليكون في صف إخوانه أساتذة المدرسة معلماً، فامتنع الشيخ الحفناوي من ذلك وقال: إنما جئتُ طالبًا للعلم متعلمًا لا معلماً، ولكن الجماعة رأت فيه الكفاءة التامة ليُؤخذ عنه العلم، فألحّت عليه وأكدت في اقتراحها هذا حتى نزل عند اقتراحها، وتقلّد منصب التدريس بالمدرسة، وأقبل عليه مديرها "حسن بريهمات" معجبًا بعلمه وأدبه وحسن أخلاقه، وتصدى الشيخ لبثّ معارفه بين صفوف التلاميذ، وبعد وفاة الأستاذ "بريهمات" غادر الشيخ الحفناوي العاصمة عائداً إلى مسقط رأسه بالديس، وفي ذلك نراه يروي لنا قصته هذه بنفسه في كتابه الحافل «تعريف الخلف الرجال السلف» فيقول: « لما ساقتني الأقدار إلى الجزائر كان المرحوم –حسن بريهمات– أول من ضمني إليه وأطلعني على

---

[1]– عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام،ج1، ط6، بيروت: دار الثقافة، 1983م، ص (426. 427).

[2]– نفسه، 427.

غثّها وسمينها: وقد جئتُها طالب علم علمائها وزيارة أهلها فأغناني عن أحيائها بما عنده في المدرسة الدولية، وكان رئيس إدارتها إلى أن توفي رحمه الله يوم 10 جمادى الأولى سنة 1301هـ / مأسوفًا عليه»[1] على كل كانت الجزائر العاصمة مرحلة جديدة وفاصلة في حياته كلها، فكما تولى التدريس والخطابة بالمسجد الكبير ابتداءً من سنة 1314هـ/ 1897م[2]؛ تولى أيضاً وظيفة الإفتاء المالكي بالجزائر (المدينة) منذ عام 1925م، وبالجزائر كافة في آخر حياته (1355هـ/ 1936م) بعد حياة علمية وأدبية واجتماعية نشيطة فأفنى عمره كله في خدمة البحث والتدريس والتأليف والإفتاء، جعلت الأستاذ سعد الدين بن أبي شنب يقول عنه:«كان رحمه الله كلفاً بالعلوم على مختلف أنواعها من دينية ودنيوية، وكان كاتباً بليغاً وشاعرًا مجيداً كثير التدقيق والتنسيق ذاكراً للتاريخ، باحثاً محققاً، لازم التدريس فلم ينقطع عنه مع تخطي الثمانين»[3].

أما عن مسألة نسبه فهناك إشكالية حقيقية تضمنها كتابه «تعريف الخلف برجال السلف» قد يبدو فيها الحفناوي متناقضاً مع نفسه في نسبه الحقيقي، فعندما نُراجع ما ترجمه للشيخ بن أبي القاسم الديسي المعروف بابن عروس (والده) في كتابه نجد أن نسبه موصول إلى سيدي الشيخ إبراهيم الغول دفين بوسعادة، الذي يمتد نسبه إلى العترة النبوية الشريفة وعلى ذلك يصبح أولاد سيدي إبراهيم من آل البيت (الأشراف)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إذا طالعنا ترجمته لسيدي إبراهيم الغول وتمعنَّ في أصل أبيه (إبراهيم السّلامي) نجد الحفناوي يُقرُّ بالأصل التركي لجده الأول وبالتالي يصبح أصل أولاد سيدي إبراهيم هو الأصل التركي ليس حتى العربي[4].

---

[1]- الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص119

[2]- بن قينة، صوت الجزائر، ص6.

[3]- سعد الدين بن أبي شيب، "النهضة العربية"، مجلة كلية الآداب، ع1، ص 48 .

[4]- الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص20.

فحسب السلسلة التي وضعها في ترجمة والده يقول الحفناوي: «هو والدي الشيخ بن أبي القاسم (بن عروس) بن الصغير بن محمد المبارك بن محمد بن أبي القاسم بن محمد السنوسي بن مرزوق بن احمَّد بن سيدي إبراهيم الغول»[1] دفين بوسعادة ابن إبراهيم السّلامي دفين الأميرالية بالعاصمة. وإبراهيم الغول من أشهر أجداده، وسُمي بالغول لأنه تَغوَّل في الولاية[2]، أي غاص فيها، وقطع أشواطاً بعيدة في التصوف، وهو ينتسب إلى الأشراف، وأهل بوسعادة يعتقدون فيه الصلاح، ويزورون ضريحه إلى الآن، ويستغيثون به. أما والده الغول إبراهيم السّلامي فقد كان هو أيضاً فيه الصلاح، حجَّ بيت الله الحرام، وفي طريق عودته أدركته المنية في مرسى الجزائر (الأميرالية)، فدفن فيها «وضريحه مقصود للزيارة والتبرك»، وقُبيْل عزمه السفر إلى البقاع المقدسة أمر زوجته الحامل بتسمية ابنه على اسمه إن لم يعد، وسُمي بإبراهيم السّلامي نسبةً إلى دار السلام وهي التسمية الأولى لمدينة بغداد في العهد الأول للعباسيين، وكان قد تزوج بنت سيدي عيسى، وقبيلتها هي أولاد سيدي اسعيد. وجده إبراهيم السّلامي كان معاصرًا لمحمد بن علي الخروبي (ت963هـ/1555م) وأجداد الحفناوي كلهم ممن يحفظون القرآن الكريم، ويعرفون من الفقه ما لابد منه، ولهم هوامش على كتب الفقه المتوارثة في مكتباتهم الخاصة في قرية الديس، وفي أحضان هذه العائلة ولد الحفناوي[3].

إن المتمعن فيما أورده الحفناوي في تعريفه حين يتحدث عن أصله وأصل وتفريعات قبيلته يستنتج أن أصل أولاد سيدي إبراهيم أصل تركي، وفي الحقيقة إن هذا ما وجدته سائدًا عند أغلب منتسبي أولاد سيدي إبراهيم حاليًا؛ بل حتى أنني لم أعثر على عالم أو فقيه أو مدرس من أولاد سيدي إبراهيم على مدى القرون الثلاثة

---

(1)- نفسه، ج2، ص 176.

(2)- نفسه، ج2، ص22 .

(3)- نفسه، ج2، ص20.

الأخيرة من يُردف اسمه بلقب حسني أو إدريسي أو شريف على ما هو سائد في عُرف من ينتسبون إلى الدوحة النبوية أي كما يفعل أحفاد الشيخ أبو القاسم الهاملي وغيرهم، وحتى الحفناوي نفسه الذي عاش في زمن تفتخر فيه الناس بنسبها الشريف يندرُ أن تجد له رسالة أو مقالة أو كتاب يُدبج به اسمه مرفوقًا بمفردة الحسني أو الشريف، اللهم إلا قصيدة واحدة نظَّمها في الافتخار بنسبه وشرفه وبعرشه أولاد سيدي إبراهيم، وعلى ما قيل لي فإنه قد نظَّمها ردًا على قاضي سيدي عيسى آنذاك الذي طعن في نسب سيدي إبراهيم ووصفه بالدَّعي... وحتى في هذه القصيدة الحجائية... ليس فيها ما يدل على أن قائلها ينسبُ أهله إلى آل البيت لو لم نعرف سبب نظمها، حتى الشيخ إبراهيم الغول على ما نُسبَ إليه كان عندما يُنادى بالشريف احترامًا لنسبه وشرفه، كان يقول:«إنما الشريف غداً»، ويبدو أن هذه المقولة أضحت هي السائدة في خلفه فزهدوا عن شرف اليوم لأجل شرف الغد.

2- تعلمه:

تلقى الحفناوي صنوفًا وألوانًا عدة من العلوم والمعارف تتنوع بحسب تنوع المحاضن العلمية التي أخذ منها ودرس، فقد تلقى معارفه الأولية في مسقط رأسه الديس أين حفظ القرآن الكريم صغيراً، وأخذ مبادئ العلوم العربية والشرعية عن والده، وبعد أن شبَّ استأذنه في الارتحال إلى كبريات المعاهد والزوايا التي كانت قائمة في وقته على عادة طلاب العلم آنذاك، فأذن له فنزل في أول رحلاته في زاوية طولقة واتصل بشيخها الحفناوي بن علي بن عمر ابن مؤسس الزاوية وأحد تلامذة والده، ومكث بها أربع سنوات(867- 1871)م، درس خلالها علوم الشريعة والأدب، ثم شدَّ الرحال إلى زاوية الشيخ ابن أبي داود بتاسلنت بأقبو (بلاد زواوة في القبائل) وبالتوازي معها أخذ بعضاً من الفقه من زاوية شلاطة القريبة منها، فقضى بها ثلاث سنوات (1871- 1874)م، أخذ فيهما علوم القرآن والفقه والفلك، حيث أخذ ذهن الفتى يتفتح ويتنوَّر بعلوم جديدة في مختلف الصنوف، وهو أمر لم يتعوَّد عليه فيما

سبق له ودرّس، فشرع يحاول الإنتاج الفكري ويحاول فرض الشعر غير أن زاوية الهامل وهي محطته التالية شهدت فترة النضج والنبوغ لدى الحفناوي، خصوصاً على يد شيخه محمد بن عبد الرحمان الديسي(البصير)، كما أن وجوده في الزاوية التي قضى فيها سنتين متتاليتين (1874– 1876) ونشاطه فيها، أتاح له فرص التعرف على الشخصيات الأدبية والعلمية التي كانت تتردد على الزاوية فسمع منهم.

وعلى ما يذكر كل من مارت وأدمون قوفيون[1] من قبل، والأستاذ أبو القاسم سعد الله[2] فإن تعطش الحفناوي للعلم أبى عليه أن يرضى بما عنده فذهب إلى نفطة حيث الزاوية العزوزية الشهيرة بالعلم والتصوف، ومن الملاحظ أن الزوايا التي تردّد عليها الشيخ الحفناوي كلها رحمانية، ولا ندري إن كان قد اكتفى بنفطة أو ذهب أيضاً إلى حاضرة تونس حيث ذكر بعض المؤرخين والمهتمين بسير الأعلام وأولهم الأستاذان مارت وأدمون قوفيون[3]، أن الحفناوي بعد أن أتمّ دراسته بزاويتي شلاّطة وابن أبي داود اتجه صوب زاوية نفطة العزوزية بتونس بقصد الاستزادة في العلم وزيارة أقاربه المهاجرين هناك، فعقب احتلال بسكرة عام 1852م هاجرت أعداد كبيرة من العائلات البسكرية إلى تونس مثل عائلة بن عزوز يرأسها مؤسس زاوية نفطة الرحمانية الشيخ مصطفى بن عزوز الذي سيكون له أدوار علمية وسياسية كبيرة بتونس[4]، يضاف إليها عائلات آل المكي وبلحسين وغيرهم، غير أنه – ومن خلال تتبعنا للمسار العلمي للشيخ الحفناوي– لم نعثر على ما يُثبت هذه الرواية اللهم إلا إذا كان دافعها عائلي وحدثت في فترة متأخرة من عمره وليس في مرحلة التلقي والتعلم، ويبدو أن الأمر قد اختلط على أصحاب هذه الرواية؛ فالذي درس في نفطة

---

(1)– مارت وأدمون قوفيون، المصدر السابق، ص156

(2)– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص– ص (89 . 90)

(3)– مارت وأدمون قوفيون، المصدر السابق، ص 156.

(4)– للتوسع في نشاطاته ونشاط المهاجرين الجزائريين بتونس راجع كتابنا:– الإسهامات السياسية والفكرية للنخبة الجزائرية بتونس، الجزائر: دار البصائر، 2008 م.

هو أخوه المدني، والأمر نفسه حدث في قصة حضور الحفناوي درس العصر الذي ألقاه الشيخ محمد عبده أثناء زيارته للجزائر عام 1903م والأصحُّ أن الذي حضر هو أخوه المدني. فالمتواتر عندنا هو أن الشيخ الحفناوي بعد أن قضى ثلاث سنوات في جبل زواوة، غادرها نهائيا عام 1874م وبعد أن عرَّج على بلدته لمدة قصيرة، انطلق منها إلى زاوية الهامل أين درس على شيخيها أبو القاسم الهاملي، ومحمد بن عبد الرحمان الديسي لمدة سنتين فالحفناوي لم يذهب إلى نفطة في مرحلة التلقي لأنه لا يوجد بين أيدينا الآن ما يثبت ذلك، ولا يمكن أن نُقرَّ بهكذا رواية من غير تثبت، فبعض المصادر المدونة والشفوية نفت أن يكون قد سافر إلى نفطة بعد مرحلة أقبو وشلاّطة، لكنها تتفق على أنه أخذ العلم عن ابن أخته المكي بن عزوز المدرس بزاوية نفطة، وهذا عندما زارهم في بلدة الديس خلال الفترة (1876– 1883م) وهذه هي زيارته الأولى، وللعلم فإن بن عروس والد الحفناوي هو جد المكي بن عزوز من جهة أمه فأمه هي شقيقة الحفناوي.

من خلال ما مرّ معنا من تتبع لمساره التعليمي في كل أطوار حياته إلى أن استقر به المقام في مدينة الجزائر نجد أن الحفناوي قد تلقى العلم على طائفة كبيرة من علماء عصره ممن اشتهروا بنبوغهم وعلوّ كعبهم في مختلف أنواع المعارف والمعارف. أمثال: والده الشيخ محمد أبو القاسم (بن عروس)، محمد بن عبد الرحمان الديسي البصير (1854-1921م)، الشيخ الحفناوي بن علي بن عمر، الشيخ محمد الصديق الديسي، الشيخ محمد الطيب بن أبي داود (ت1309هـ/1891م) مؤسس زاوية بن أبي داود بزواوة، الشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي (ت 1315هـ/1897م) صاحب زاوية الهامل ومؤسس معهدها الكبير، الشيخ حسن بن بريهمات، الشيخ المكي بن عزوز، الشيخ محمد القزادري، الشيخ آرنو **R.ARINAUD**: هو أحد أهم المستعربين في نهاية القرن 19م كان متوليًا منصب مدير جريدة "المبشر"، كما تولى أيضًا وظيفة رئيس المترجمين بالإدارة الفرنسية، كان الحفناوي قد لازمه فترة طويلة (12 سنة)،

الشيخ علي عبد الرحمان بن محمد المعروف بابن الحفاف (ت 1308هـ/ 1890م).
الشيخ احميدة بن محمد العمّالي (ت 1290هـ- 1873م)...

3- نشاطه الصحفي:

كان الشيخ أبو القاسم الحفناوي من أبرز الأسماء الجزائرية التي ظهرت في المبشر وعملت فيها طويلاً، حيث كان عمله فيها مزدوجاً أي التصحيح والترجمة وكذا النشر بالعربية في مواضيع شتى، فقد خدم تحت إمرة شيخه الفرنسي "أرنو" حيث كان الحفناوي متمكناً من اللغة العربية وفي الفرنسية أيضاً، ولم تكن المبشر تنشر أسماء الكتاب المترجمين إلا نادراً، ولذلك كانت معظم أعمال الحفناوي مغفلة الاسم، ولا ندري متى بدأ في النشر فيها بالضبط ولا الفرق بين المترجم والموضوع الذي ساهم به. ولو رجعنا إلى مختلف أعداد المبشر واستطعنا معرفة ما ترجم وألّف الحفناوي فيها ولو كان غفلاً من الاسم لاستطعنا أيضاً أن نخرج من ذلك بصورة واضحة عن مساهمته في هذا الميدان، إن رجلاً في ثقافة الحفناوي العربية ومعرفته الفرنسية بالقدر الذي يستطيع به نقل معارفها إلى العربية هو الذي كانت الجزائر في حاجة إليه عندئذ رجل مزدوج اللغة ولكن في فائدة لغته لا لغة عدوه، رجل ينقل للجزائريين آداب وعلوم الفرنسيين لكي يتغذوا منها وينتعشوا وينطلقوا لأجدادهم في مجال الإبداع والمنافسة الحضارية.

لقد حلّ الحفناوي بجريدة المبشر محل أحمد البدوي الذي كان من أوائل الصحفيين الجزائريين في هذه الجريدة وكان عمل الحفناوي في المبشر هو التصحيح والإضافة والترجمة؛ أما التصحيح أو بالأحرى الصياغة وجعل أسلوب الجريدة مقروءًا بين العرب والمعربين فأمره هام، لأن الجريدة عرفت عدة مراحل من جودة التحرير ورداءته، وأما الإضافة فهي ما كان يختاره لها الحفناوي من مقالات وطرائف وتراجم من كتب التراث الإسلامي التي يعرفها والتي كانت المكتبة الوطنية تتوفر منها على المخطوطات والمطبوعات، فهو بهذه الصفة يوفر للجريدة المادة العربية ولكن بتوجيه

من شيخه "آرنو" ثم من جاء بعده، وبالإضافة إلى ما سبق كان الحفناوي يتتبع أيضاً ما كانت تكتبه الصحافة العربية في الشرق سيما في مصر وتونس واستانبول ولبنان، أما الجانب الآخر وهو الترجمة فنعتقد أن الحفناوي لم ينتج فيه إلا في وقت لاحق أي بعد أن تعلم الفرنسية وأصبح قادراً على الترجمة منها والتلخيص بها، وقد ظهر ذلك في عدة أعمال نشرها، ويهمنا من هذا كله أن الحفناوي كان بين 1883م–1897م صحفياً من نوع خاص، فهو كاتب ومحرر ومصحح وناقد لما يُنشر في جريدة المبشر.

من جهة أخرى تعلم الحفناوي من جريدة المبشر فن الصحافة وجمع المادة الخبرية وتحريرها وتوجيهها وصياغتها واختيارها، كما تعرف على مراحل فن الطبع والنشر وأنواع الترجمة، ومما تعلمه الحفناوي أيضًا من جريدة المبشر العمل مع المستشرقين الفرنسيين، فعرف عن كثب ماذا كانوا يريدون منه ومن الشعب، وكيف يُحرِّفون الأخبار لتتناسب وأهوائهم وسياستهم، وعرف اهتماماتهم بالمشرق زمن حكم السلطان عبد الحميد، والثورة الإيرانية، واحتلال مصر وتونس والمغرب وليبيا، وثورة المهدي السوداني، فكان له ذلك في حد ذاته ثقافة عملية واسعة في فن الصحافة الاستعمارية وأحوال العالم الإسلامي، ولا نستبعد أن يكون بعض مؤلفاته من وحي هذه الظروف، وقد يكون بعضها بدافع من الفرنسيين أنفسهم مثل كتاب «تعريف الخلف»، كانت الموضوعات التي عالجها الحفناوي في المبشر حيّة وفي الأغلب ذات صلة بوقائع الساعة، منها دعوته لقومه إلى تعلم اللغة الفرنسية، وتحصيل العلوم الفرنسية رغم أنه لم يكن من خريجي السوربون ولا من مدرسة "سان سير" ولا حتى الكوليج الامبريالي، بل كان من خريجي الزوايا والمعاهد الإسلامية، ومدرساً في المدرسة الشرعية الفرنسية قبل أن تدخلها اللغة الفرنسية ومع ذلك أخذ على عاتقه دعوة مواطنيه إلى التعلم باللغة الفرنسية على صفحات الجريدة الرسمية الوحيدة، فالحفناوي كان يعتقد أنه يدعو من خلال "المبشر" إلى العلم والتعلم –كما تدعو إليه المبشر– ولكنه كان يجهل ما وراء ذلك، لا نستطيع أن نتهم الشيخ أو غيره من الشيوخ ممن

سار على دربه بأنهم كانوا عملاء للإدارة الاستعمارية. ولكن فقط نتهمهم بالجهل بخلفيات السياسة الاستعمارية وأبعادها: ألم يؤيد مشائخ أمثالهم الحكومة العامة سنة 1933م حين أصدرت منشور ميشيل بغلق المدارس الإصلاحية؟ ألم يُدعم مشائخ آخرون فرنسا سنة 1914م ضد الدولة العثمانية؟ ألم يَصِفوا وفد المؤتمر الإسلامي سنة 1936م بأنه كان يتدخل في السياسية ويتحدث عن الوطنية الممنوعة؟!!.

فالحفناوي من خلال دعواته في "المبشر" إلى قومه بضرورة التعلم من الثقافة والحضارة الفرنسية كان يسعى إلى إقناع المترددين أو الخائفين على مصير أولادهم إذا دخلوا المدارس الفرنسية، ولكن الشيخ لم يتفطن إلى خلفيات هذه الحملة التي تنظمها "المبشر" ومن ورائها إدارة الشؤون الأهلية والمكاتب العربية التي كانت تصور فرنسا بلاداً متحضرة من جهة وحاملة لواء الحضارة والتمدن من جهة أخرى، وكان ذلك يحدث أيام انتزاع الأراضي من الجزائريين عن طريق المرسوم المشيخي وإغراق البلاد بالمستوطنين الفرنسيين الذين كان يأتون من كل الأنحاء الأوربية، كما كان يحدث أيام ثورة أولاد سيدي الشيخ التي كان فيها الجيش الفرنسي يرتكب المجازر الفظيعة بقيادة اللقيط يوسف وأمثاله. وصدر سنة 1865م قانون يعتبر الجزائريين (رعايا) لا مواطنين فرنسيين إلا إذا تخلوا عن الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية. هذه الخلفيات لم يكن يعرفها الحفناوي على ما نعتقد ولكن الشعب كان يعرفها جيداً ويعيشها يومياً لذلك كان لا يؤمن بالبهرجة ولا بالحملة التي تصور فرنسا «حنانة» على رواية الشيخ محمود بن الشيخ علي، وذات قلب رحيم على الجزائريين المساكين. يظهر الشيخ الحفناوي إذن من المنبهرين بالرسالة الفرنسية في الجزائر ولا ندري إن كان لوظيفته دخل في ذلك فدعوته قامت على عدة عناصر وهي: ضرورة تعلم الجزائريين اللغة الفرنسية وعلوم الفرنسيين، والاقتداء بهم في نظمهم السياسية كالانتخابات، ومن ثمة فإن ترك الأطفال مهملين دون تعلم اللسان الفرنسي يعتبر في

نظره حماقة وبلادة، وهو في الدعوى يلتقي مع معاصريه مصطفى بن السادات، وحسن بريهمات، ومحمد بن الحاج حمو وأضرابهم.

إن السلطات الفرنسية كانت تجد أمثال هؤلاء المشائخ في كل وقت يختمون على قراراتها ويصدرون لها الفتاوى المناسبة، ومع ذلك فلا نستطيع أن نسمي هؤلاء جميعاً بأنصار الاستغراب والاندماج لأن هؤلاء وإن كانوا من المبدعين والمتفوقين في مجالات تخصصهم الفقهية والشرعية والأدبية فهم من الجاهلين بالسياسة وكواليسها، ولعل تلك الرواية التي يوردها أحمد توفيق المدني في لقاءه الأول مع الشيخ الحفناوي تُسلط الضوء على الفهم السياسي لدى الحفناوي لكثير من القرارات والمواقف الفرنسية، كما أنه لا يمكن أبداً من خلال كتاباته بالفرنسية أو دعوته لقومه لتعلم الفرنسية والثقافة الفرنسية أن ننسبهم إلى تيار الاندماج والاستغراب، كما تعاون الشيخ الحفناوي مع الشيخ محمود بن كحول في جريدة كوكب إفريقيا هذه الأخيرة التي تعتبر أول جريدة عربية أشرف على إدارتها جزائري، انطلقت في الصدور يوم 17 ماي 1907م وكان لسانها عربي خالص[1]، وأغلب ما نشر فيها الحفناوي من مقالات على قلتها كان يغلب عليه الطابع العلمي والتربوي والديني المتمثل في الوعظ والإرشاد بمعنى أن جميع كتاباته كانت تنادي بضرورة التعلم وتربية الأخلاق الحسنة من دون الخوض في المشاكل السياسية وتكهناتها.

4- نشاطه الثقافي والتربوي:

ساهم الشيخ الحفناوي في النهضة الجزائرية في مطلع القرن العشرين، وكان من مظاهرها انتعاش الصحافة العربية وتأسيس النوادي الثقافية والجمعيات المدنية ذات الطابع الاجتماعي أو الديني، ومن بينها الجمعية الرشيدية التي كان الحفناوي مشاركاً في أغلب نشاطاتها بإلقاء المحاضرات وتنشيط الندوات، فقد كان الحفناوي مشاركاً في ندوة نظمتها الجمعية الرشيدية عام 1907م بمحاضرة ألقاها باللغة العربية تحت عنوان

---

[1]- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، الجزائر: عالم المعرفة، 2010 م، ص 344.

فرنسا: "الحرية وتفوق اللغة الفرنسية"، إلى جانب بن بريهمات وابن التهامي وعبد الحليم ابن سماية وابن زكري وعبد القادر المجاوي ومحمد بن رحال[1].

لقد حاول الحفناوي في مساعيه الثقافية والاجتماعية تشجيع الإدارة الفرنسية على مبادراتها في التعليم والأعمال الخيرية، ونظراً لهذا الموقف المعتدل نحو الإدارة الفرنسية. فإن الحفناوي ومن سار على دربه من المثقفين والمدرسين والعلماء والمفتيين كانوا تحت هجوم العناصر الجزائرية المحافظة في ذلك الوقت، أما الجيل الجزائر الحاضر، فقد يعتبر أولئك الزعماء متعاونين مع العدو، ولكن الحقيقة التاريخية هي أن معظم أولئك الزعماء كانوا يعملون بكل حمية من أجل تنوير وتقدم بلادهم، لقد كانوا -كما يقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله- يُشرون «بجزائر فتاة» لا يمكن أن تتحرر إلا بالتعليم والتقدم والتسامح.

وعندما شغل الشيخ الحفناوي منصب مدرس بالجامع الكبير بالعاصمة عام 1897م درَّس الفقه والتوحيد والنحو والصرف والحديث واللغة والمنطق والفلك، وقد ظلَّ يبذل العلم لطلبته حتى جاوز الثمانين من عمره، وحين زار الشيخ محمد عبده الجزائر عام 1903م كان الحفناوي من بين الشخصيات الجزائرية التي استقبلته ورافقته في سفره، واستناداً إلى بعض الروايات[2] فقد حضر دروسه، ودارت بينهما مناقشات لاسيما أثناء تقديمه لدرسه الشهير (تفسير سورة العصر). كما كان يمارس التعليم في الجامع الكبير بالعاصمة للطلبة ولعامة الناس، وحسب الشيخ عبد الرحمان الجيلالي فقد كان يُحب هذه المهنة، ويبذل فيها قصارى جهده ليوصل المعلومات واضحة دقيقة إلى أذهان طلبته»[3]، كما أشار إلى إعجابه الكبير بالمصنفات الصوفية وأصحابها:« فكان يُقدمها لنا بكل احترام ويشرحها شرحاً دقيقًا حسبما يبلغ إليه

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ص 140.

[2]- مارت وادمون قوفيون، المصدر السابق، ص156 . الجيلالي، المصدر السابق،ج4، ص. ص(432. 433) - بقطاش، المرجع السابق، الأصالة ع51، ص 50 .

[3]- الجيلالي، المصدر السابق،ج4، ص 429.

فهمه ويركن ما غمض منها إلى الله، ولاسيما منها آراء ابن عربي في فتوحاته والدباغ في الإبريز، فقد كان له ذوق ممتاز وخاص به في فهم كلامهما وشرحه»[1].

وإضافة إلى كل هذا النشاط العلمي والثقافي الزاخر بالإنتاج والحيوية؛ فقد بذل الشيخ الحفناوي جهداً ثقافياً آخر لم يُشر إليه بعض من اهتم بالبحث في سيرته؛ وهو اجتهاده في جمع المخطوطات وقراءتها، وفحص محتويتها والتأكد من المادة العلمية التي تضمنتها، وحفظ ما وجده فيها من ثروة تاريخية وأدبية تجلّت بشكل جليّ في سفره «تعريف الخلف برجال السلف» وعلى ما قيل لي: فإن الحفناوي كان يمتلك مكتبة ثرية بالكتب المتنوعة في شتى التخصصات، وبعد وفاته قام آل المكي (أبناء أخته) القاطنين في طولقة بتحويل معظمها إلى مكتباتهم الخاصة[2] ولم يتبق منها إلا النزر القليل تكفلت به فيما بعد أيدي الفضوليين وصروف الزمن والطبيعة ونهم الأرضة والفئران!!.

لقد نشأت بين الحفناوي وبعض الفرنسيين ضباطاً أو علماء علاقة قوية وتعاون منسق من أجل نقل المعرفة المنشودة، هذا التعاون كان يفترض فيه أن يظهر وأن يأخذ كل طرف نصيبه من التنويه، ولكن الفرنسيين جعلوا من الجزائريين أشخاصاً ثانويين جداً، وقلّما يذكرونهم في كتاباتهم، وإذا ذكروهم فبإشارة ضعيفة لا تنويهًا بهم ولكن إظهاراً للبراعة والروح العلمية في الموضوع الذي يقدمونه[3]، والمعروف عن الحفناوي أنه كانت له مساهمات كثيرة مع الفرنسيين في المجالات العلمية؛ كتقديم الوثائق أو التعاون على ترجمتها والاشتراك في تقديم معلومات عن قبيلة أو شخصية علمية قديمة..فقد قام بجهد كبير في تقديم المعلومات التاريخية والدينية لديبون وكابولاني أثناء تأليف كتابهما عن الطرق الصوفية، حيث نوّهَا به

---

[1]- نفسه .

[2]- مقابلة خاصة مع السيد بلقاسم البشير «ابن أخيه».

[3]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص 169.

وبجهوده ومساعداته لهما في مقدمة الكتاب. ولا ننسى أيضاً أن أكثر تآليفه كانت بطلب من رجال السلطة الفرنسية المحلية أو من شخصيات عسكرية علمية. ومن نشاطاته الثقافية أيضاً إسهاماته الثرية في اللجنة التي شكّلها "موريس فيوليت" من رجال القانون والقضاء الفرنسي وثلّة من كبار العلماء الرسميين لتدوين المعاملات في الفقه الإسلامي بصفة مجلة قانونية يرجع القضاة والوكلاء والخصوم إلى بنودها كما يجري به العمل في البلاد العثمانية سابقاً[1] ومن أنشطته الفكرية والثقافية داخل المجتمع؛ مساهمته في معالجة قضايا المجتمع الجزائري ذات البعد الديني فقد كانت للحفناوي اجتهادات وفتاوى جريئة أصدرها منذ توليه منصب المفتي المالكي للعاصمة عام 1344هـ/ 1925م خلفاً للشيخ محمد أرزقي بن ناصر، وكان هذا المنصب من المناصب الدينية الهامة جداً في ذلك الوقت حيث لا يتقلّده إلا من كان متمكناً من ناصية العلوم الشرعية، خبيراً بالقضايا التي تُعرض للناس في حياتهم الاجتماعية، ويشهد له معاصروه بصرامته في الحكم والإفتاء عندما تتعارض أفعال البشر مع صريح الأحكام الشرعية.

5- نشاطه الاجتماعي والديني:

كان للشيخ الحفناوي مساهمات فعالة في الجمعيات والنوادي التي تأسست خلال تلك الفترة خصوصاً منها الرشيدية وجمعية أوقاف الحرمين الشريفين، حيث كان ينشط من خلالها نشر التعليم والمساعدة على تحرير الشعب الجزائري من الجهل والأمية من خلال تنظيم دروس في التعليم العام والمهني (التعليم المسجدي) وعقد محاضرات علمية وأدبية، وخلق جمعيات خيرية والدعوة إلى العمل على محاربة الآفات الاجتماعية... ونشر ثقافة السلم والتعاون ومعالجة الأمراض اللاأخلاقية... ومساعدة الجزائريين على إبراز مواهبهم الأدبية والعلمية، ولعل جملة المحاضرات التي شارك بها الحفناوي في مختلف ندوات هذه الجمعيات وبشكل تطوعي قد تساعدنا لا على فهم مساهماته فقط؛ بل

---

[1]- توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 427 للتوسع يراجع: - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص532.

على فهم بداية نشوء ملامح النهضة الجزائرية الحديثة أيضًا. ورغم ثقافة الحفناوي الواسعة في التراث وعلاقاته الوطيدة بالفرنسيين، وإيمانه بالتقدم العصري، فإننا لا نجد له حضور في مؤتمر المستشرقين الرابع عشرة (14) الذي انعقد بالجزائر سنة 1905 بينما نجده يقوم بمرافقة الشيخ محمد عبده سنة 1903م من مرسيليا إلى الجزائر على ظهر الباخرة- وكانت مهمته معه مجهولة حسب الأستاذ أبو القاسم سعد الله-[1].

بالإضافة إلى كل هذه النشاطات فقد كان الحفناوي أيضًا عضوًا نشيطاً في جمعية أوقاف الحرمين الشريفين التي نشأت خلال السنوات الأولى من بداية عهد السلطان المولى يوسف (أوت 1912- 1927) وكان من أهدافها البحث عن جميع الأوقاف والأحباس التي تبرع بها أولوا البرّ باسم الحرمين (بتونس والجزائر ومراكش) إضافة إلى النظر في سفر الحجاج إلى أداء فريضة الحج، وتحديد هذا السفر بدءاً وعوْداً والجهات التي يمر بها، وتعيين طريقه من زيارة المدينة وما يتبع ذلك[2] وعلى ما ذكر الأستاذ أبو القاسم سعد الله هو أن هذه الجمعية أنشأتها الإدارة الفرنسية عام 1917م[3] وكان الهدف الحقيقي منها هو جلب المسلمين وإرضائهم خلال الحرب؛ وكان أول رئيس لها هو السيد قدور بن أحمد بن غبريط (ذو الأصل الجزائري)[4]، وكانت الجمعية وسيلة فرنسية أيضاً للتدخل في الحجاز وفلسطين بعد

---

[1]- نفسه، ج7، ص 433.

[2]- المولود الصديق الحافظي الأزهري، "بحث حول جمعية الحرمين" الشهاب، ع 13، الجزائر: 4 فيفري 1926، ص ص(3. 6).

[3]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص411.

[4]- قدور بن أحمد بن غبريط: من مواليد مدينة تلمسان سنة 1288هـ- 1872م . ربما يكون والده هو ابن عودة بن غبريط إمام الجامع الكبير بتلمسان في آخر السبعينيات من القرن 19م وقد تحدّث عنه المشرفي في« ذخيرة الأواخر» بعد أن زار الجزائر سنة 1878م. والبعثة الفرنسية إلى الشريف حسين كانت برئاسة الضابط الفرنسية بريمون "Bremond" شغل مناصب هامة من ضمنها تعيينه رئيساً للتشريعات الملكية على عهد السلطان المولاي يوسف توفي عام 1373هـ -1954م ودفن بمسجد باريس.

أن شعرت فرنسا أن الإنجليز قد خططوا لحصر الفرنسيين في لبنان وسوريا فقط. فكانت الأوقاف والحج وسيلة سياسية لنشر التأثير الفرنسي في مناطق التأثير الإنجليزي وقد كان الشيخ الحفناوي أحد أعضائها البارزين من يوم توليه منصب مفتي العاصمة عام 1925م حيث كان له دور بارز من خلال جمعية الأوقاف في تشييد مسجد باريس والمعهد الإسلامي المجاور له حيث كان من ضمن الوفود الإسلامية التي حضرت تدشينه سنة 1926م[1].

ومن الأنشطة ذات البعد الاجتماعي والثقافي والديني التي كان الشيخ الحفناوي من روادها هو عضويته للجمعية الدينية الإسلامية بالجزائر العاصمة، حيث جاء في جريدة الشهاب[2] أنه: «اجتمع يوم الأحد الفارط الواقع في 02/14 الجاري بالمسجد الأعظم بالجزائر أعضاء الجمعية الدينية الإسلامية ومشتركوها لانتخاب نصف أعضاء المجلس الإداري كما هو مقرر بقانونها الأساسي،... وبعد الأخذ والرد والمفاوضة التي دامت من الساعة العاشرة صباحاً إلى الساعة الحادية عشر ونصف بعد الزوال استقر الرأي على السادة الآتية أسمائهم وهم: الشيخ الحفناوي مفتي المالكية، محمد بوقندورة مفتي الحنفية، أحمد بن صيلم ملاك، بومدين عضو بالمجلس البلدي، مصطفى ولد عيسى عضو كان، مصطفى الشرشالي عضو كان، حسن بورصاص عضو كان، وإنا نهنئهم بهذا الفوز وندعو لهم بالتوفيق إلى ما يعود على الأمة بالخير».

6- نشاطه التأليفي:

إن ثقافة الشيخ الحفناوي في بداية نشأته التعليمية كانت دينية ولغوية وأدبية تستمد من التراث وتحاكيه، ثم طعّمها بثقافة عصرية فرنسية، وساعده تمكنه اللغوي

---

[1]- "الجمعية الدينية الإسلامية بعاصمة الجزائر وانتخابها السنوي"، الشهاب، ع19، الجزائر: 25-03-1926، ص.ص(2-3).

[2]- "الجمعية الدينية الإسلامية بعاصمة الجزائر وانتخابها السنوي"، الشهاب، ع15، الجزائر: 18-02-1926، ص2.

من الفرنسية التي لا ندري متى وأين تعلمها، من دمجها مع رصيده الديني والأدبي فكانت النتيجة جملة من المؤلفات التي درَّسها أو اجتهد في إنتاجها ثم استوحى منها عدد من الكتب والمقالات والرسائل كان لها تأثير في كتاباته. إن هذه الآثار تعكس ثقافته وتختلف دواعيها ودوافع إنتاجها، فمنها الذي أنتجه استجابةً لطلب أصدقائه أو المسئولين عنه في جريدة "المبشر" كما حدث مع سفره المميز «تعريف الخلف لرجال السلف» ومنها الذي ألفه نتيجة لتدريسه أو محاضراته التي كان يلقيها في النوادي والمساجد، ومنها أيضاً ما كان نتيجة اشتراكه في البحث أو الترجمة مع باحثين وكتاب آخرين، وأخيراً منها الذي أنتجه ليقتل به وقت فراغه، أو ليروِّح به عن نفسه (وهذا النوع من الآثار كان أغلبه رجزاً شعرياً)، فتنوعت آثاره وتعددت الموضوعات التي طرقها، منها العلمي البحت، ومنها الأدبي والتاريخي الخالص ومنها ما هو مزيج بين العلم والأدب والتاريخ، وبأعماله الفكرية وثقافته، نال اعتراف الكثيرين بسعة علمه، كما أحرز على إعجاب تلاميذه، وتقدير أصدقائه ومسؤوليه وبعض معاصريه فأجاز الكثيرين وأجازه الكثيرون.

من آثار الشيخ العديد من الكتب، منها من قام بتجميع مادته هو بنفسه بأدوات البحث المعروفة في زمانه (الكتب المقابلة، المراسلة، الرواية الشفوية)، وكان لحل إنتاجه باللغة العربية من بينها كتابه «تعريف الخلف»، ومنها من قام بترجمته سواء من العربية إلى الفرنسية أو العكس بعد تنقيحها أو تلخيصها بما يتوافق وبيئته الثقافية، وله مقالات في الأدب والتاريخ والاجتماع والدين والتصوف والصحة والبيئة، وبحوث علمية كثيرة صدرت في أغلبها على صفحات جريدتي "المبشر" و"كوكب إفريقيا"، كما أضاف الحفناوي إلى رصيده التأليفي عدداً كبيراً من المقطوعات الشعرية التي نظَّمها في مناسبات وأغراض مختلفة وأغلبها مفقودة كونه كان يقول الشعر بحسب المناسبة التي وافقته، ومنها من كان يُدبج بها رسائله، وبما أن الشيخ لم يكن يملك ثقافة أرشفة تراثه النثري والشعري وحفظه فقد ضاعت في

أغلبها على (أرجح الروايات) كما أن «سفره إلى فرنسا عدة مرات سمح له بتكوين ثقافي وفكري واسع في المجالات اللغوية والعلمية... مما ساعده على القيام بأبحاث ودراسات استلهمها من مؤلفات الفرنسيين المختصين وهو أمر لم يكن يتسنى لكثير من بني جيله ممن كانوا يمتلكون قاعدة تعليمية ذات طابع تقليدي تصوفي..»[1]، ويذكر الأستاذان مارت وأدمون قوفيون: «بأن الحفناوي كان ذا صدر واسع متسامح ككل مسلم، سافر إلى فرنسا عدة مرات فأضاف إلى ثقافته اللغوية ثقافة في العلوم الطبيعية، مكّنته من القيام بأبحاث اقتبسها، وترجم بعضها من الكتب الفرنسية في مادتي الفلك والكيمياء وغيرها»[2].

هذا الرصيد الثقافي الجديد والطارئ في تكوينه الفكري حفّزه لنقل معارف في الصحة والكيمياء والبيئة والفلك... وغيرها إلى عامة الناس خصوصاً منهم بني جلدته في أسلوب رائق بسيط ولغة بسيطة سلسة بعيداً عن الاصطلاحية التركيبية، عن طريق جريدة المبشر... فتلقفها عامة الناس وحقّقت مبتغاها الذي يريده الحفناوي بعيداً عن النية المبيتة للسياسة الاستعمارية، ومن المقالات التي نشرها في هذا السياق: صلاحية عدة نباتات قوتاً للإنسان، تركيب الهواء تركيب الماء، ذكر المغناطيس وخواصه، الحكمة وأنوارها في الكهربائية وأسرارها...، ولاشك أن نشر الحفناوي لبعض مؤلفاته كان بتوجيه واقتراح من هيئة تحرير "المبشر": وإدارة الشؤون الأهلية، لأنه كان يدخل في توصيل المعارف إلى المسلمين (الأهالي) من وجهة النظر الفرنسية، كما أن كتاباته بصفة عامة كانت تمثل المرحلة التي عاشها، فنحن نجده يُعالج في المبشر موضوعات تتعلق بقوافل الصحراء أثناء اهتمامات الفرنسيين بالتوغل نحو الجنوب، فنقل على جريده "الطان" سنة 1887م مقالة عن تجارة القوافل المتجهة

---

[1]– قوفيون، المصدر السابق. ص 157

[2]– نفسه .

إلى القورارة، وكتب حول داء الكلب ودوائه، ونشر عن ذلك مقالة سماها «الكلب لدى أطباء العرب» أظهر فيها دور العرب والمسلمين في الطب.

وفيما يرجع إلى نشاطه في ميدان التأليف نراه مؤلفاً بارزاً وكاتباً لامعاً فيما حرره في كتابه الحافل « تعريف الخلف برجال سلف» من جمعه لتراجم طائفة من علماء الجزائر وخيرة أدبائها الأبرار الذين لولاه لما عرفهم تاريخ الجزائر ولذهبت عنا أخبارهم مع الأيام، ولولاه أيضاً لضاع منا كثير من تاريخ الحركة العقلية بالجزائر في العصر الحديث[1] ويذكر الشيخ عبد الرحمان الجيلالي أيضاً أن الحفناوي ألّف كتابه هذا وهو عن طهارة كاملة إلى حد أنه كان يُقلل جهده من شرب الماء حتى لا يضطر إلى النهوض عن العمل لإسباغ الوضوء[2] كما أنه ترجم عن الفرنسية بمشاركة الأستاذ جان ميرانت[3] كتاباً في تدبير الصحة للحكيم "دركل" وأسماه كتاباً «الخبر المنتشر في صحة البشر» وقد طبع هذا الكتاب بالجزائر سنة 1326هـ/1908م، ونشرته الإدارة الفرنسية على عهد "شارل جونار" بهدف تعميم ودعم أعمال تأليفه تبدو بريئة لعلاقتها بحفظ الصحة على العموم[4].

وله أيضاً كتاب «القول الصحيح في منافع التلقيح» وهو أيضاً قامت بنشره الإدارة الفرنسية في الجزائر وواضح من عنوانه أنه يتعلق بالتلقيح ضد بعض الأمراض المعدية مع ترغيب الجزائريين في ذلك دون أي إحراج ديني أو اجتماعي أو صحي، وللحفناوي بن الشيخ مؤلفًا آخر تحت عنوان:«رفع المحل في تربية النحل» وهو في

---

[1]– عبد الرحمان الجيلالي، المصدر السابق، ج4، ص 433. ولقد قمنا بإعادة تحقيقه بعد العثور على النسخة الأصلية للكتاب بخط يد صاحبه، والنسخة الحقيقية للشيخ محمد بن أبي شنب : الجزائر: دار كردادة، 2011م.

[2]– نفسه.

[3]– جان ميرانت : من الضباط الخبراء في الشؤون الجزائرية، وقد تولى إدارة المبشر على مرتين لمدة طويلة أوائل القرن العشرين.

[4]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص 257.

الأصل كتاب ألّفه الطبيب رايسير عام 1894م بعنوان: "تربية النحل"، لأنه موجه كما ذكر الحفناوي لتعليم المسلمين كيفية تربية النحل، وقد نسب إليه بعض المترجمين أعمالاً مخطوطة، منها مؤلفات في الجغرافيا والتاريخ والمعاني: «كالمستطاب في أقسام الخطاب» و« أرجوزة في جغرافية ابن خلدون» وله أيضًا من غير المطبوع رجز بعنوان: «غوص الفكر في حروف المعاني» وقد شرحه بنفسه تحت عنوان «صوغ الدُّرر على غوص الفكر»، وبحثه حول الأقاليم السبعة وذكر لي أحد المهتمين بتراث المنطقة[1] أن الحفناوي في أخريات أيامه اجتهد في تأليف كتاب حول "تاريخ المغرب الأقصى" غير أن المنية عاجلته وتوقف عند الورقة الثالثة عشرة (13) أما العمل الهام الذي بقي بجمل اسم الحفناوي فهو كتابه الضخم «تعريف الخلف برجال السلف» وهو في التراجم الخاصة بعلماء الجزائر عبر العصور.

وتدل أعمال الحفناوي هذه وكذلك الرسائل التي تناول فيها حفظ الصحة والبيئة والمجتمع على أنه كان متحرر الفكر في حياته، ولعل صلته بالمستعربين الفرنسيين والمصالح الدنيوية وعمله في الصحافة قد جعلته يتجه إلى الحياة العملية وليس الصوفية أو حتى الدينية كما فعل بعض معاصريه من الذين تخرّجوا من الزوايا، وبعض المقالات في "المبشر" تدل على أنه متأثر أو مساير للحياة العصرية، وحين ألقى محاضرة في الجمعية الرشيدية سنة 1907م اختار عنوانها «فرنسا والحرية وتفوق اللغة الفرنسية»

وللشيخ الحفناوي قصيدة رجزية طويلة قيل لي أنها من ألف بيت تقريباً!! هدف من خلالها تعليم اللغة الفرنسية للناشئة، وكان الشيخ لذكائه قد تعلّم الفرنسية فصار يتكلم بها مع الفرنسيين، ويناقش علمائهم فيُفحمهم بواسع علمه وقوة حجته، وقد ألّف بالعربية ألفية في الكلمات الجارية من الفرنسية على الألسن، منها هذا البيت الذي يدل على اقتدار الشيخ على النظم، وعلى روحه الفكهة، وميله إلى الدعابة قال: وإنْ تُحيِّني

---

[2]- مقابلة مع الأستاذ بن عبد الرحمن المدني.

وللصبح قُلْ: (تُوبُحُورْ) ولَفْظَةُ الدَّوامِ عِنْدَهُمْ (بُحُورْ) وللطَّرِيقِ (أَثْمَا) وللحَدِيدِ (قُيَنْ)...
وإن كان الأستاذ دبوز قد نسبها إلى الشيخ عبد القادر المجاوي[1].

أما فيما يتعلق بالتآليف والدراسات التي اشترك فيها مع غيرها من المهتمين فهي كثيرة ونجهل أغلبها...كون أصحاب هذه الدراسات لا يذكرون جهوده في مقدمات دراساتهم إلا القليل منهم، وعلى ذات السياق أنكرت أيضاً جهود علماء الجزائر الآخرين أمثال: عبد الحليم بن سماية، وسعيد بن زكري، والفكون وغيرهم كثر. ومن الذين لم ينكروا دعم الحفناوي لهم؛ نجد "ديبون وكوبولاني" اللذين اعترفا بفضله ودعمه لهما على توثيق مؤلفهما حول الطرق الصوفية في كتابهما الطرق الدينية الإسلامية الذي صدر عام 1897م؛ حيث وصفاه في مقدمة الكتاب[2] بأنه: «الخوجة المحرر بالمبشر، وأنه وضع نفسه يوميًا تحت تصرفهما، وأنه أثرى بمعارفه الواسعة ترجماتهما وصحّحها» ومن المؤلفات التي ذكرها مقرونة باسمه (ابتسام العروس، الدُّرر الكامنة، روض القرطاس، ومقدمة ابن خلدون ....الخ) .

ومن الذين أعانهم الحفناوي أيضاً في الترجمة والتصحيح المستشرق "دومنيك لوسياني" الذي سهر معه على نشر مجموعة من الأعمال في شكل ترجمات سواء من العربية أو من البربرية المكتوبة بالحروف العربية، وقد أعانه الشيخ الحفناوي في تحقيق وترجمة كتابين هما: «السلم المرونق في المنطق» و«الدُّرة البيضاء في الفرائض» وكلاهما لعبد الرحمان الأخضري، كما ترجم معه «الرحبية في الميراث» لعبد الله الشنشوري... كما ساهم الحفناوي في تأليف الكتاب الضخم «مرابطون وإخوان» للمستشرق "لويس رين" وهو دراسة حول الطرق الصوفية في الجزائر، غير أن "رين" تعمّد أن يحتكر فضل التأليف لنفسه كعادة كثير من المستعربين. كما أعان الحفناوي شيخه "آرنو" الترجمان الأكبر بالولاية الجزائر العامة في ترجمة فصل (فن التصوف) من كتاب

---

(1)– دبوز، نهضة الجزائر، ج1، ص 104.

(2)– **Dupont et copolani ; Op.cit. ; p 27**

«سعود المطالع» لعبد الهادي بحا الأبياري إلى اللغة الفرنسية، ويذكر ذلك تلميذه عبد الرحمان الجيلالي بقوله: «كان شيخنا يساعده على شرح النصوص الصوفية التي جاء بها المؤلف، وقد صدر هذا البحث منشورًا باللغتين العربية والفرنسية بمطبعة فونتانة عام 1305هـ/ 1889م»[1].

لقد كان نتاج هذه الرحلة في الحياة بعض الآثار فمنها دفعات من الطلبة والدراسيين الذين تلقوا عنه، ومنها بشكل أخص آثاره الفكرية التي لا يزال بعضها – بدون ريب – مخطوطاً مجهولاً، وأغلب ما جمعنا له الآن هو تلك المقالات التي دوّنها في جريدتي "المبشر" و"كوكب إفريقيا" رغم أن الكتابة في الأول خصوصاً لم تكن ذات قيمة أدبية وعلمية له، لهزالتها وتبعيتها للإدارة الاستعمارية، فالجزء الأكبر من آثاره كان في بداية منشأه عملاً صحفياً بحتاً...

لقد كان الشيخ على ما ذكرنا سلفًا واسع المعارف جمّاعا للكتب والوثائق، قوي الذاكرة، وقد ازدوجت لغته وتعمّقت ثقافته العربية والفرنسية بالمطالعة والاتصال بأعيان المترجمين الفرنسيين، وقد أستغل هؤلاء قدراته اللغوية ومعارفه العربية والإسلامية لصالحهم وكان أول من استغله هو (الشيخ آرنو) كما يسميه وقال عنه أنه هو شيخه في العلوم العصرية واللغة الفرنسية، وأنه هو الذي رباه عقليًا وعلميًا[2] فالحفناوي بن الشيخ هو العالم المفتي والخطيب والمدرس والصحفي والمترجم والأديب والشاعر والفقيه والصوفي الرحماني، ورغم ذلك نراه في كتابه غائباً عن تبجيل نفسه أو عائلته أو نسبه الشريف، لكن كان حاضراً بجلائل أعماله وغزارة إنتاجه «وخلاصة ما يقال عن صفاته وأخلاقه الدمثة وسجاياه الكريمة رحمه الله فكأنما هي سبكت من الذهب المصفي نبلاً وكرماً وأريحية ومروءة.. ومارئيَ يوماً محتدماً أو غضبانًا فكان لا يعرف للغضب ولا للعتاب أو التعنيف لفظاً ولا معنى.

---

[1]– عبد الرحمان الجيلالي، المصدر السابق، ج4، ص 428 .

[2]– الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص .409.

7- من مظاهر المقاومة الثقافية للشيخ الحفناوي كتابه:

تعريف الخلف برجال السلف:لقد ساهم هذا الكتاب في إحياء التراث الثقافي الجزائري القديم، ويعتبر من مظاهر النهضة الجزائرية في بداية القرن العشرين، وهي إحياء الأعمال التاريخية كتعبير عن الوجود القومي الجزائري وقد ظهر بعد نشر أعمال كل من بن عمار(نخلة اللبيب)، وابن مريم «البستان»، والورتيلاني «نزهة الأنظار»، والغبريني «عنوان الدراية»...كما حاول الحفناوي إبراز المساهمة الجيّدة لعلماء الجزائر ومثقفيها وبعض زملائهم في المغرب العربي والسودان الغربي ممن كانت لهم مساهماتهم الثقافية في أمتهم، فجسّدوا بذلك حضورهم الحضاري في المسيرة التاريخية للثقافة العربية الإسلامية، تجسّد ذلك في (419 شخصية) عرّف بها الحفناوي في كتابه من إبراز مكانة الجزائر الثقافية ودور رجالها عبر القرون فشمل ذلك كل ما استطاع الوصول إليه منذ القرون الأولى للحضارة العربية الإسلامية حتى أيامه.

مما لاشك فيه أن الدافع الحضاري يأتي على رأس الدوافع التي حدت بأبي القاسم الحفناوي إلى تأليف كتابه، ويبدو هذا واضحًا بشكل لا مواربة فيه في المقدمة التي وطأ بها له حيث أشار بعبارة صريحة إلى الازدهار الثقافي والنشاط العلمي الذي عرفته الجزائر في سابق عهودها وإلى الآثار القيّمة التي خلّفها علماؤها في مختلف مجالات المعرفة، وإلى المكانة المرموقة التي كانت تحتلها بين الدول بسبب هذا الرقي الحضاري «فالظاهر أن القطر الجزائري قد اجتهد قديماً في طلب العلم بجميع أسبابه، وأتاه من سائر أبوابه، ووقف على معقوله ومنقوله فتمكّن من أصوله وفصوله، وكان لعلوم وقته جامعاً، ولرايتها رافعاً مثل أخويه المغربين الأقصى والأدنى، فظهر في الأقاليم بدره.. واشتهر في التاريخ قدره، بعلماء بنو تآليفهم على أركان التحقيق وحضوها بأسرار التدقيق فكانوا في عصرهم نجوم اهتداء، وأئمة اقتداء»[1].

---

[1]- نفسه، ج1، ص 5.

فالحفناوي في مقدمته أشار إلى أن الهدف الجليل الذي من أجله وضع هذا المؤلّفْ يتجاوز الكتابة التاريخية إلى إيجاد وعي حضاري لدى الأجيال الجزائرية بهويتها، وجهة انتمائها، ويمحو من نفوسها ذلك الضياع الذي كانت تعيشه، واعتبر أن إحياء هذا التراث العريق، وتمكين الجزائريين منه سيكون القاعدة التي يتم الارتكاز عليها للسير نحو المستقبل، واللحاق بركب المدنية الحديثة فهو يقول في معرض الامتنان للوالي العام الفرنسي لتشجيعه مؤلف الكتاب على المضي في عمله أنه بذلك: «أحيا لجيلهم خير ما كان لأسلافه من مدنية الإسلام وأحسن إليه بما يناسب من العصر الجديد لاجتماع كسوره، وانتظام أموره، وليمكنه الارتقاء في مدارك العمران ومدارج العرفان.. والتقدم في طريق النجاح المادي والمعنوي تقدماً محسوساً بحركات علمه وعمله، عساه أن يكون تلميذ العصرين ومجمع البحرين، عصر الشرق القديم وبحره، وبحر الغرب الجديد وعصره»[1] إن الإشارات الحريصة إلى ماضي الجزائر المصبوغ بالطابع العربي الإسلامي، والإشادة به وبرجاله والتأكيد على الخصوصية الثقافية للشعب الجزائري في مواجهة الآخر والتي نجدها مبثوثة في المقدمة، تكشف عن البعد النهضوي والتطور الواعي الذي ميّز هذا العمل التاريخي الهام.

إلى جانب كل هذه الدوافع المباشرة، يمكننا أن نضيف الرغبة الذاتية للمؤلف؛ فالحفناوي كان كثير الاطلاع، واسع الحفظ، دفعه حبه للعلم لأن يغادر مسقط رأسه قصد الاستقرار في مدينة كبيرة حتى يتسنى له العثور على كنوز العلم وأمهات المصادر، ويلتقي العلماء الذين بإمكانهم أن يوسعوا مداركه ويفتحون أمامه أبوابًا لم يلجها من قبل، فوقع اختياره على الجزائر العاصمة، كما كان مترجمًا شغوفاً بالتأليف والتدوين، ويبدو أن اختياره لهذا النوع من الكتابة أي الترجمة للمشاهير من العلماء والصالحين قد جاء ثمرةً لإعجابه الكبير بكتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة، والذي جمع فيه مؤلفه أعدادًا هامة من أسماء المؤلفات،

---

[1]– نفسه، ج1، ص 6.

ونرجم أيضًا لطائفة كبيرة من أصحابها، حيث ذكر أنه قرأه مرات عديدة بشغف زائد[1]، لما فيه من إشارات بليغة إلى اتساع ميدان العلوم، وهمّة العلماء في تحصيلها، وقوة عزائمهم في التأليف والتدوين. كما يدخل دعم الإدارة الفرنسية ممثلة في الحكومة العامة ضمن الدوافع غير المباشرة لإنتاج هذا الكتاب، ذلك أنه ومنذ عام 1895م أسس الحاكم العام "جول كامبون" لجنة ترجمة الكتب العربية، وكان الغرض منها هو إعداد ونقل الكتب العربية إلى اللغة الفرنسية[2].

8- وفاتـــــه:

أصيب الحفناوي في آخر حياته بالشلل، وعندما عجز الأطباء عن شفائه عاد إلى مسقط رأسه بقرية الديس حيث قضى أيامه الأخيرة صابرًا محتسباً بعد أن تمكن منه المرض إلى أن أسلم روحه إلى بارئها يوم الجمعة 21 ذي الحجة 1360هـ الموافق لـ 10 جانفي 1942م[3] حسب شهادة تلميذه عبد الرحمان الجيلالي لكن شهادة وفاته الرسمية تذكر أنه: «توفي بدوار أولاد سيدي إبراهيم في 08 جانفي 1942» وهي شهادة مستخرجة من البلدية المختلطة ببوسعادة تحت رقم 22 مؤرخه بتاريخ 14 أفريل 1942م. لقد توفي الشيخ الحفناوي عن عمر بلغ 90 سنة، ودفن بمقبرة الديس الظهراوية القديمة، إلى جانب والديه، وقبره الآن لا يكاد يُعرف.

---

[1]- الجيلالي، المصدر السابق، ج4، ص427.

[2]- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص99

[3]- الجيلالي عبد الرحمان، المصدر السابق، ج4، ص 435 .

الخاتمـــة:

إن حياة الشعوب والأمم مدينة بالفضل لرجالات برزوا وقدموا لها ثماراً تظل تتغذى عليها أجيال فأجيال، رجال تمتد أعمارهم قروناً ويطوي ذكرهم وعلمهم المسافات والأزمان رجال هانت الدنيا في أعينهم، وصغرت المشاق عندهم حين قاسوها بالغايات المرجوة وكأنه كان يدرك ما سوف يؤول إليه، فمن شمائل هذه الشخصية المميزة من كثرة عبادته وزهده في الدنيا ومتاعها، وكذا تمسكه بالمذهب في الغالب، هو صرامته في ميدان التربية والتعليم وحرصه على الطلب وجديته في ميدان الإصلاح والتوعية، وبكل ذلك وبغيره استطاع الحفناوي أن يحجز لنفسه مكاناً بين كبار شخصيات عصره، جعلت الأستاذ سعد الدين بن أبي شنب يقول: «كان رحمه الله كلفاً بالعلوم على مختلف أنواعها من دينية ودنيوية وكان كاتبًا بليغاً وشاعراً مجيداً، كثير التدقيق والتنسيق، ذاكرًا للتاريخ باحثاً محققاً لازم التدريس فلم ينقطع عنه مع تخطي الثمانين»[1] كان الشيخ الحفناوي أحد قادة الإصلاح في الكتلة المحافظة، وكان يتمتع بشعبية واحترام كبيرين بين الجزائريين وحتى بين الفرنسيين في وقته: فقد ورد في تقرير أحد المفتشين الفرنسيين "ويليام مارسيه" أن الحفناوي «مدرس جد مثقف، ويتمتع بفكر حر وواضح سلس في لغته، يُكيِّف دروسه بحيث تكون في متناول تلامذته بشكل جيّد، وهذا ما يجعلنا نطمئن لفهم مستمعيه لدروسه...»[2] كما وصفه ديبون وكوبولاني في مقدمة كتابهما «الطرق الدينية الصوفية» صدر عام 1897م، بأنه: «الخوجة المحرر بالمبشر، وأنه وضع نفسه يومياً تحت تصرفهما، وأنه أثرى بمعارفه الواسعة ترجماتهما وصحّحها»[3].

---

[1]- ابن أبي شنب، النهضة، ص 48.

[2]- زوزو، المرجع السابق، ص225.

[3] -Dupont et copolani, Op.cit. ; p27